الطّيبَات والخبَائِث كَمَا يُبَيِّنُها القُرآنُ الكَرِيم

د. حسن بن صالح الحميد

أستاذ مساعد – جامعة أم القرى

المعهد العالي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – قسم الحسبة

The Ottoman Empire through Yemeni Lens: a study of a travel manuscript

Dr. Aref Mohammed Abdullah Fare' Alra'wi

Assoc. Prof. of Modern and Contemporary History,

Dean of International Cooperation, Ibb Univeristy

Abstract

This paper aims to introduce one of the most important historical travel manuscripts, namely, *Rihlat-u-ulama'a-i wa Al-Saada min Al-Yemen ila Dar-Ul-Sa'aada* (The Travel of Scholars and Masters from Yemen to Turkey) written by Hajj Abdullah Yunis (1907AD/1325AH). The manuscript takes the form of a detailed diary/report on a Yemeni delegation consisting of the top influential tribal, religious and judicial figures (including Hajj Yunis) on the Yemeni national and local level. They were selected per the orders of the Ottoman Sultan Abdul Hameed in 1907AD to meet the Sultan in Istanbul to discuss how to restore the political stability in Yemen.

The importance of the manuscripts lies in the fact that the writer, Hajj Uunis, detailed everything taken place during the travel, in addition to his own impressions. In fact, Hajj Yunis put us vis-à-vis a detailed picture of the Yemeni-Ottoman relations, particularly documenting the minutes of the meeting with the Sultan, and those of other meetings with the leadership of the Ottoman Empire. Another importance of the manuscript is that it highlights the huge medical, military, urban and infrastructural developments in several Turkish cities from the "Other's" perspectives. It, thus, gives the Turkish reader a very clear picture of a specific period of the Ottoman Empire as viewed through Yemeni lens.

مجلة القلم

(علميّة – فصليّة – محكّمة)

الرقم الدولي

(ISSN 2410-5228)

تصدر عن جامعة القلم

للعلوم الإنسانية والتطبيقية

مدينة إب

الجمهورية اليمنية

www.alkalm.net

الطَّيِّبَات والخَبَائِث كَمَا يُبَيِّنُها القُرآنُ الكَرِيم

د. حسن بن صالح الحميد

أستاذ مساعد – جامعة أم القرى

المعهد العالي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – قسم الحسبة

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى بيان حقيقة الطيبات والخبائث ، من خلال حديث القرآن الكريم عنها ، حيث يستخلص حقائق موجزة عنها ، بعد الدراسة الموضوعية لآيات الطيبات والخبائث من خلال سياقها القرآني ، وبيان أثرهما على الحياة ، وعواقب كل منهما على الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة ، بأسلوب سهل موجز يركز على الثمرة والنتيجة والدرس والعبرة ويبتعد عن الحشو والإطالة ، قدر الإمكان .

المقدمة

إن أخطر ما يواجه الإنسان في الحياة هو قلب الحقائق ، وآيته استحسان القبائح، والتزهيد بالفضائل وخلط الصحيح بالزائف من القِيَم والأشياء والأشخاص، وتسمية الأشياء بغير أسمائها، بل بأضدادها في أحيان كثيرة؛ إن ذلك يفسد الحياة والأحياء، ويقضي على أحلام التقدم المدني النزيه في الحياة الدنيا، والنجاة من العقوبات والهوان في الآخرة. ولقد ضرب الإنسان — إلا من عصم ربك – في أودية كثيرة؛ رغبة في استصلاح حاله، فعاد الأكثرون من كل ذلك بخفي حُنين، بل انقلب عليهم سعيهم؛ إذ فسدت مع الوقت فطرهم، وسمجت مع طول المِمَاسّة مروءتهم، فاستحسن طوائف منهم القبيح واستهجن الحسن، وانتقلت عدوى هذه الكأس المقلوبة إلى كل زوايا الحياة تقريبا؛ عقائديا وأخلاقيا واجتماعيا، وفي العبادات والعوائد، وهذا ليس في أمة دون أخرى، أو مجتمع دون غيره بل كان في عامة المجتمعات التي لم تهتد بهدي الله، ولم تُخضِع عقولها لمنهاجه، ولم تتعرف على حقائق الأشياء في مدرسة الوحي، ولم تدخل إلى المدنيات من بوابة الرسل، ومن خلال برامجهم للحياة. ومن هنا فقد استفردت الشياطين بأكثر الخلق؛ تسمي لهم الأشياء، وتزين لهم الأباطيل، وتستخدم إمكاناتهم للتغرير بهم، فَفَقد الإنسان أجمل ما في الحياة، وهو رؤية الأشياء كما هي، والتعاطي معها كما تستحق، وضاعت المعالم الفارقة بين الحق والباطل، وانساح البحر المالح فأفسد العَذب الزلال.

ولا شك أن هذا الاختلاط والتلويث يُعَذّب النفوس الطيبة، ويجرّئ ذوي الطباع البليدة والنفوس الخسيسة، فيبدو الأولون غرباء وهم يبحثون عن الطيبات، ويشعر الآخرون بالزهو وهم يتباهون بكثرة السّواد في مستنقعات الخبائث، وهذان الفريقان كانا وما يزالان يتعايشان منذ فجر البشرية الأول وإلى أن يأذن الله بخراب هذا العالم والمغالبة قائمة، فكان لابد من بيان الطيب من الخبيث في دراسة مفردة سميتها:"**الطيبات والخبائث كَمَا يُبَيِّنُها القُرآنُ الكَرِيم**"

أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه

إن مما أظهر الله لنا من حكمته أن الخبيث والطيب يتدافعان، من خلال أشخاص ومبادئ، وأقوال وأفعال لا تتناهى .. وأن لكل منهما عناصر قوة وجاذبية، وأن الطيبات ذات نسب عريق بالحق، ويعتريها ما يعتريه. وأن الخبائث ذات نسب بالباطل عريق، ويحتفّ بها ما يحتفّ به. وهذا وذاك كله مسطور مبسوط في كتاب الله، بل لقد تضمن الكتاب العزيز فصل الخطاب في التمييز بين الطيب والخبيث، ووضَع القواعد الذهبية والعلامات الفارقة والمنارات الهادية، رحمة بأوليائه، وإعذارا إلى عامة خلقه.

وربما ذكر القرآن الخبيث والطيب بألفاظها الصريحة، مفردة على إرادة الجنس، أو بلفظ الجمع إشارة إلى تنوع آحادهما وكثرة كل منهما. وربما ذكر مرادفات كل منهما كالرجس والنجس، وكالتطهر والتزكي، ونحو ذلك. وربما ذكر القرآن هذا وذاك بالحكم المترتب على كل منهما؛ الحلّ والحرمة، أو بمآلات كل منهما؛ كالنفع والضر، والثواب والعقاب.. وهكذا.

وحيث إن الخبائث بدلالة النصوص واستقراء أحوال الخلق هي أكثر شيوعا، والناس إليها أكثر انجذابا، فصار أكثر الخلق بالضرورة محاربين للفضائل والطيبات فقد ذكرتُ بشيء من التفصيل كثرة أهل الضلال في الأمم، ليتضح أن النسبة بين الطيبات والخبائث في الأشياء والأشخاص منسوبة إلى عموم الناس في تناسب واطراد.

وبعد: فقد يكون تناثر فرائد معاني هذا الموضوع في عموم النصوص أحد أسباب الذهول عنه، لكنه سيبدو غاية في الظهور بعد صياغةِ وتأليفِ مُتفرِّق صورِه، كما سترى ذلك عما قريب، بحول الله، ومن الله أستمد العون والتأييد.

منهج البحث

سوف أستخدم المنهج الاستقرائي الاستنباطي التحليلي للنصوص حيث سأتناول النصوص القرآنية المتعلقة بالطيبات والخبائث في سياقها القرآني بالدراسة الموضوعية والتحليلية واستخراج المسائل منها والتعليق عليها لما يقتضيه المقام .

خطة البحث

وقبل المضي في الحديث عن هذه الركائز وما يتفرع عنها، فإني أجعلك على بصيرة مما ستقرأ ، بذكر أهم المسائل التي اشتملت عليها هذه الدراسة ، وجملتها في أربع عشرة مسألة، تطول أو تقصر بحسب طبيعة كل مسألة وما يلزم لإيضاحها .. وهي :

المسألة الأولى: معاني الخبيث والطيب .

المسألة الثانية: الخبيث والطيب لا يستويان.

المسألة الثالثة: قاعدة: لا تسوية بين المختلفات ولا تفريق بين المتماثلات.

المسألة الرابعة: دلالات هذه القاعدة.

المسألة الخامسة: الخبائث تعجب أكثر الخلق.

المسألة السادسة: أكثر الخلق منجذب إلى الخبائث.

المسألة السابعة: الإنسان هو من يجعل الطيبات خبائث.

المسألة الثامنة: أسباب كثرة الخبائث والانجذاب إليها.

المسألة التاسعة: الخبائث لا تملك جاذبية بذاتها.

المسألة العاشرة: الخبائث لا تثبت أمام الطيبات.

المسألة الحادية عشرة: الخبائث لا بركة فيها.

المسألة الثانية عشرة: الطيبات حلال والخبائث محرمة.

المسألة الثالثة عشرة: الطيب والخبيث لا تُستثنى منه الذرية.

المسألة الرابعة عشرة: حصاد الخبائث شؤم .. وعواقب الطيبات حَمْدٌ.

ثم الخاتمة: وفيها خلاصة موجزة بأهم تنبيهات هذه الدراسة.

والله أسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه وإن يجعله خالصا لوجه الكريم.

المسألة الأولى: معاني الخبيث والطيب

من الأهمية بمكان لمن يتصدى لمدارسة أي موضوع أن يقف عند مدلولات كلماته المفتاحية إن احتاجت إلى إيضاح؛ لأن اللغة وعاء المعاني.. ونحن بين يدي بحثنا سنقف على مدلولات كلمتي «الخبيث»، و«الطيب» في اللغة، ونتعرف على شيء من استعمالاتهما في التنزيل، بإيجاز.

مدلولات كلمة « الخبيث »

قال الراغب في مفرداته: « الْخُبث والخبيث: ما يكره رداءةً وخساسةً، محسوساً كان أو معقولاً، وأصله الرديء الدّخلة، الجاري مجرى خبث الحديد. . . وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال، قال عز وجل: " وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ " [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: ما لا يوافق النفس من المحظورات. وقوله تعالى: " وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ"[الأنبياء: ٧٤]، كناية عن إتيان الرجال. وقوله تعالى: " مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ " [آل عمران: ١٧٩] أي: الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة، والنفوس الخبيثة والنفوس الزكية. وقال تعالى: " وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ"[النساء: ٢]؛ أي: الحرام بالحلال. وقال تعالى:"الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ"[النور: ٢٦]؛ أي: الأفعال الرديئة والاختيارات المبهرجة لأمثالها، وكذلك "وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ". وقال تعالى: "قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ "[المائدة: ١٠٠] أي: الكافر والمؤمن، والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة. وقوله تعالى: "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ"[إبراهيم: ٢٦]؛ إشارة إلى كلمة قبيحة من كفر وكذب ونميمة، وغير ذلك »(١).

مدلولات كلمة « الطيب »

وقال في معنى الطيب: « يُقال طاب الشيء يطيب طيباً فهو طيبٌ، قال: " فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ"[النساء: ٣]، وقال: "فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ" [النساء: ٤]، وأصل الطيب: ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً من حيث ما يجوز، وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذي يجوز، فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً، لا يستوخم، وإلا فإنَّه وإن كان طيباً عاجلاً لم يطب آجلاً، وعلى ذلك قوله تعالى: " كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ " [البقرة: ١٧٢]، " وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا"[المائدة: ٨٨]. وهذا هو المراد بقوله: " وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ " [الأعراف: ٣٢]، وقوله: " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ"[المائدة: ٥]. قيل: عنى بها الذبائح، وقوله: " وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ " [الأنفال: ٢٦]؛ إشارة إلى الغنيمة. والطيب من الإنسان: من تعرَّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلَّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وإياهم قصد بقوله: " الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ " [النحل: ٣٢]، وقال: " طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ " [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: " رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً " [آل عمران: ٣٨]، وقال تعالى:"لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ"[الأنفال: ٣٧]، وقوله:"وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ"[النور: ٢٦]؛ تنبيه أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين »[٢].

وبهذا القدر الذي نقلتُه من مفردات « الراغب » كفاية في الدلالة على أشهر معاني كل منهما، وأنه عام في المحسوسات والمعقولات، شاملٌ للظواهر والبواطن، يندرج تحته عالم الأحياء وعالم الجماد. وأن القرآن قد اشتمل على القواعد الكلية التي يستند إليها في تمييز المحاسن من القبائح والطيبات من الخبائث ، كما اشتمل على قدر كبير من التطبيقات العملية لكل هذه القواعد.

ويمكننا بعد ذلك الشروع في تفصيل الحقائق التي أَوْمَأَتْ إليها آية المائدة: " قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ"[المائدة: ١٠٠]. ثم نعود للتذكير بجملة من الملامح والحقائق التي نبهت إليها الآيات الأخر.

المسألة الثانية: الخبيث والطيب لا يستويان

هذه قاعدة مطردة، لا تنخرم . قال الحق سبحانه: " قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ " [المائدة: ١٠٠].

وهي أصل نؤسّس عليها مدارسة هذا الموضوع، وعليها نرتكز في تبيان أهم الملامح التي نبّه إليها القرآن في التمييز بين الطيب والخبيث.

ففي هذه الآية أمور:

الأول: أن الخبيث والطيب لا يستويان، بل هما ضدان مختلفان وحقيقتان متغايرتان. وذلك في قوله سبحانه " **لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ** ".

الثاني: أن الخبيث يَستهوي ويُعجِب. وذلك قوله سبحانه: " **وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ".

الثالث: أن الخبيث في جملته أكثر من الطيب، وإن كان أخف ميزاناً وأقل شأناً. وذلك قوله جلّ وعزّ "**وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ".

فإنه لا يستوي الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والأقوال: كالضار والنافع ، والفاسق والصالح ، والحرام والحلال، ولا من الناس: كالظالم والعادل والجاهل والعالم، والمفسد والمصلح ، والبَرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر.

و « لكل من الخبيث والطيب في القسم الأول حكم يليق به عند الله تعالى، ولكل منهما في القسم الآخر – أي من الناس – جزاء ومكان يستحقه بحسب صفته (سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (الأنعام: ١٣٩) يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه »[٣].

ولا بأس أن نقف شيئا للتذكير بقاعدة عظيم نفعها ، لمن تدبرها ، ونحن في بحثنا هذا أحوج غلى تدبرها.. هذه القاعدة هي أنه : (**لا تسوية بين المختلفات ، ولا تفريق بين المتماثلات**).

المسألة الثالثة :قاعدة : لا تسوية بين المختلفات ، ولا تفريق بين المتماثلات

لقد جاءت هذه الآية وما في معناها، ميزاناً « يقيمه الله للقيم ليزن به المسلم ويحكم »[٤] ، وقاعدة وهي: أن العبرة بصفة الشيء وبقيمته، لا بشيء آخر.[٥] هذا هو الميزان، وهذه هي القاعدة.

سُنَّة الله في خلقه وأمره، أنه " لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ". بل"الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ" "وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ".

وبذلك نكون أمام ثلاث حقائق كبرى:

الأولى: أنه لا يستوي الخبيث والطيب.

والثانية: أن الخبيث جنس تحته أنواع ينحاز ويأنس بعضها ببعض.

والثالثة: أن الطيب أيضا جنس تحته أنواع، ينحاز ويأنس بعضها ببعض. هذا هو منطوق هذه الآية ، ولازمها ومفهومها.

وإن من يسوي بينها في حسّه وظنه، أو في سلوكه وواقعه مخالفٌ لأمر الله، ومصادم للفطر السوية، ومناقض لما تشهد العقول السليمة والفِطَر المستقيمة على صحته واطراده، بل وعلى ضرورة وجوده والحكم بموجبه، وهو نائل من العقوبات العاجلة والآجلة ما يستحقه المخالفون لأوامر الله ونواميسه في كونه.

إن الله سبحانه قضى ألا يسوي بين المختلفات، وإنَّ من لازم ذلك أن نعلم علم اليقين أنَّه سبحانه لا يفرق بين المتماثلات، فإنَّ الحكمة في هذه كتلك، وهذا ما أجرى الله عليه سنته، وهو مقتضى حكمته وعدله، كما تشهد بذلك النصوص، ولهذا أنكر سبحانه على من ظنَّ أن شيئاً من ذلك يمكن أن يتضمنه أمره، أو يكون في شيء من خلقه[٦]، وأخبر أن حكمته وعدله تأبى ذلك[٧].

فمن الأول: وهو إنكاره سبحانه أنه يسوي بين المختلفات من ذلك: قوله تعالى: " أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ " [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: " أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ " [سورة ص: ٢٨]، وقوله: " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " [الجاثية: ٢١].

فأخبر سبحانه أن هذا كله حكم باطل جائر، يتعالى ويتقدَّس عن أن يجوز عليه، فضلاً عن أن يُنْسَبَ إليه ، بل أبلغ من هذا، أنَّه أنكر على من حسب أنه يمكن أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يظهر به صبره وشكره،

وأن حكمته تأبى ذلك، كما قال تعالى: " أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ"[آل عمران: ١٤٢]. وقال: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ "[البقرة: ٢١٤]، فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان؛ لمخالفته لحكمته. ونبّه إلى أن هذا الابتلاء حاصل لكل مؤمن بمجرد انتسابه إلى هذا المعسكر، وكأنه علامة فارقة وضريبة لازمة للتطهر والتخلص من خبث النفوس ورواسب الجاهلية. " الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ " [العنكبوت ٣.١].

ومن الثاني: وهو أن مقتضى حكمته وعدله سبحانه أنه لا يفرّق بين المتماثلات ؛ منه: قوله تعالى: " وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا "[النساء: ٦٩]. وقوله: " وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ "[التوبة: ٧١]. وقوله: " الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ " [التوبة: ٦٧]. وقوله: " أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ " [القمر: ٤٣]. وقوله: " سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا " [الإسراء: ٧٧]. وقوله سبحانه: " لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ "[الأنفال: ٣٧] ؛ لأنه كله من باب واحد، وهو الخبث، فاستوى في الحال والوصف في الدنيا، والمآل في الآخرة.

والقرآن مملوءٌ من هذا، يخبر تعالى أن حُكم الشيء في حِكمته وعدله حكم نظيره ومماثله، وضدُّ حكم مضاده ومخالفه[٨].

المسألة الرابعة: دلالات هذه القاعدة

كثرة ورود ذلك في القرآن ، له دلالات وإيحاءات ، منها:

أولا: أنَّ إقرار هذه الحكمة، وإظهار هذه العادة الجارية ـ أنَّه لا يستوي الخبيث والطيب، وأنَّ الخبيث جنس واحد تحته أنواع، والطيب كذلك ـ ذو أهمية بالغة في حياة الأفراد والأمم، من وجوهٍ:

– أنَّ هذا هو الموافق لحكمة الله ومُراده، والله إنَّما تعبدهم بذلك، ولا خير فيما سواه " وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ "[البقرة:٢١٦].

– ومنها: أن هذا هو الموافق لطبيعة الأشياء، المنسجم مع المصالح لعموم الخلق، وهو مقتضى ما تشهد به العقول والفِطَر السليمة.

– ومنها: أن أي اضطراب في هذا الميزان في يد الخلق أفراداً وأمماً، وأي غياب لهذه المعاني والحقائق؛ لأي سبب كان، من جهل أو هوى أو غيرهما، يؤدي لا محالة إلى فساد عريض.

ولك أن تتصور أمة يستوي في حسّ أهلها وواقعهم: الخبيث والطيب!

ولك أن تتصور أيضاً أمَّة يَعمَد أهلها إلى الطيب فيجعلونه خبيثاً، أو الخبيث فيجعلونه طيباً. يجعلون ما لهذا لهذا ! كما فعل المشركون عندما فضّلوا بعقولهم فلانا وفلانا[9] على خِيرة الله من خلقه عليه الصلاة والسلام." وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ " [الزخرف: ٣١].

وثانيا: أن أكثر الأمم من المتقدمين والمتأخرين، لما اضطرب هذا الميزان في أيديهم وغابت عنهم هذه الحكمة الإلهية في التمييز بين الخبيث والطيب، وردِّ كل شكل إلى شكله، مع شدَّة وضوحها وموافقتها للطبائع والفطر والعقول، وقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر بالله والشرك واتِّباع الأهواء والآراء الفاسدة، ورد ما جاءت به الرسل والأنبياء، وحصل فيهم ومنهم من الظلم والفجور وأنواع المصائب ما لا يخفى.

ولهذا عُني القرآن بالتأكيد على هذه الحقيقة وإبرازها، وفق منهج القرآن وعلى طريقته في تقديم الأولويات في تربية الأمة وتصحيح مسارها وتقويمها على الجادة؛ لتقيم « الحياة جملة وتفصيلاً وفق قيم الإسلام في ميزان الله حتى تكون ربانية حقاً ، وحتى ترتفع بشريتها إلى أحسن تقويم . وعندئذٍ لا يستوي في ميزانها الخبيث والطيب »[10].

ومع كل هذا، فقد ذهلت أكثر الأمم عن هذه الحقيقة الناصعة، وأسقطت من حسابها أن تزن الأحداث والأشياء بهذا الميزان، إلا من رحم الله ـ وقليل ما هم ـ فآل أمرُ البشرية إلى ما نرى من الكفر والظلم والفسوق.

إنَّ الخبيثَ والطيّب لا يستويان. وكيف يستويان وهما عند الله لا يستويان؟!

وكيف يستويان وهما في طبيعتهما وحالهما ومآلهما لا يستويان؟!

وكيف يستويان، والله يقول لنبيه محمد ﷺ: " قُلْ " أيها الرسول مخاطباً كل فرد من أفراد أمة الدعوة " لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ " [المائدة: ١٠٠][11]. لا يستويان، وإن حاول أكثر الناس أن يسووا بينهما بطريق التلفيق أو التمويه والخداع، أو التعالم والغرور. فالخبيث يبقى خبيثاً، والطيب يفصح عن نفسه ، " فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ " [الرعد: ١٧].

سكبناه ونحسبه لجيناً فأبدى الكير عن خبث الحديد

ولهذا أُخِذَت الأمم في أحقاب التاريخ بجريرة مخالفة هذا المبدأ وتلك القيمة العادلة، وما تزال تُؤْخَذ[12] بها، ولم ينج منهم إلا من اتخذ إلى ربه سبيلاً، وسبيل الله هاهنا: أن يميزوا بين الخبيث والطيب، ويزنوهما بميزان الله الذي جاءت به الأنبياء.

" الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"[الأعراف: ١٥٧]. وفي الآية إشارة صريحة إلى حقيقة أخرى من الحقائق التي جلاها القرآن وهو يضع بين يدي المؤمنين مفاتح التمييز بين الطيب والخبيث؛ وهي حِلّ الطيبات وحرمة الخبائث. وسيأتي لها مزيد بيان بعد الفراغ من تقرير الحقيقة الثانية بإذن الله.

المسألة الخامسة: الخبائث تعجب أكثر الخلق

إذا كان الخبيث والطيب متمايزين بالصورة التي عرفنا، وقد رُكز في عقول الخلق وفِطَرهم قبح الخبيث والنفرة منه، وحسن الطيب والانجذاب إليه، وإذا كانت الشرائع قد جاءت بتأكيد ذلك وبيان عاقبة ومآل كل من النوعين.. إذا كان ذلك كذلك، فَلِمَ سوَّى أكثر الخلق بينهما؟ بل ولِمَ استحسنوا الخبيث واستقبحوا الطيب؟!.

وجواباً عن هذا السؤال أقول: قد جاءت الإشارة إلى علَّة ذلك في الآية موضوع الحديث، وذلك قوله تعالى: " وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ "، وتلك هي الحقيقة الثانية التي نَبَّهَت إليها هذه الآية، ألا وهي الإعجاب بالخبيث.

ففي قوله تعالى: " وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ " إشارة إلى أن الخبيث لكثرته؛ يعجب لأول وهلة وإن كان خبيثاً، وهو الرديء الخسيس من كل شيء! فهو يُعجب، وإن كان حقيقةً لا يستحق الإعجاب به؛ لأنَّه خبيث، وقد تقرر أنَّه " لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ " . وإذن، فسُنَّة الله وحكمته ظاهرة، جارية بأن الخبيث في جملته أكثر من الطيب ، ولهذا يعجب، وإن كان أخف ميزاناً وأقلّ شأناً.

وإذا كان قد اتضح فيما مضى معنى « الخبيث »، و« الطيب » وأنهما يشملان الأشياء والأشخاص والعقائد والخواطر والمواقف ، فإنه لتجلية هذه الحقيقة التي هي مظهر من مظاهر حكمته تعالى في خلقه، لا بد من تأمّل ودراسة النصوص على نحوٍ يتضح به المعنى الذي تومئ إليه آية: " وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ".

وإن مما يظهر لمتأمل هذه الآية وما يجري مجراها ويشهد لمحتواها من النصوص واستقراء الأحوال والطباع أمورا ، منها:

* أنَّ أعمال المكلفين يكون فيها عادة من موجبات الكفر والفسوق، وسائر أنواع الخبائث، أكثر من أضداد ذلك من الطيبات كالإيمان والصلاح والعدل ونحوها.

* وأنه يخالط نفوسهم من الجهل والهوى – وهما وصفان خبيثان – ما يجعلهم قابلين للخبيث، معجبين به.

* وأنه يحتف بالخبيث من القرائن والأمور ما يجعله معجِباً لأكثر الخلق، وإن لم يكن كذلك في حقيقة الأمر.

* ومع ذلك، فإنَّ الدلائل والشواهد متضافرة أيضا على أن الخبيث – مع كثرته – لا يقوم للطيب مع قلته، ولا يصمد أمامه.

ولهذه الأمور فإنَّ الخبائث في الأمم من الإنس والجن، أكثر من الطيبات. وهذا يشمل العقائد، وأعمال السلوك، والأقوال، والأفعال، وكله بسبب ما كسبت أيديهم، وانطوت عليه نفوسهم " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " [الروم: ٤١]. والكثرة تغري بالغرور، وتفتن ضعاف النفوس. وأصل ذلك اتِّباع الشيطان " الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ " [محمد: ٢٥]، فإنَّه أصل الشرّ ومعدن كل خبيث قولي أو فعلي، وبسبب خبثه عصى ربه إذ أمره بالسجود لآدم عليه السلام كِبْراً وحسداً، وأُخْرِجَ من الجنة مذموماً مدحوراً، لا يعود إليها أبد الآبدين ودهر الداهرين، وجعلت له نار جهنم داراً ونزلاً، هو وأتباعه من الخبيثين والخبيثات، فآلا على نفسه وأقسم بعزة ربه ليغوين ذرية آدم أجمعين " إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ " [الصافات: ٤٠]، فأولئك الطيبون لهم دار السلام، الجنة دار الطيبين، فانقسم الخلق فريقين وانضووا تحت لواءين: لواء حملته الرسل والأنبياء وأتباعهم من المؤمنين"أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ " [المجادلة: ٢٢] " لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ

رَبِّهِمْ " [الأنعام: ١٢٧]. وأولئك هم الطيبون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم، وكل طيب فهم أولى به.

ولواء حملته الشياطين وأتباعهم من الغاوين " أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ " [المجادلة: ١٩] الخبيثون في عقائدهم وسلوكهم وأقوالهم وأفعالهم ومدخلهم ومخرجهم، وكل خبيث فهم أولى به.

قال تعالى مبيناً موقف إبليس من آدم وذريته: " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ " [سورة ص: ٧١ ـ ٨٥].

وقال في آية أخرى: " قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ " [الحجر: ٣٩، ٤٠]. وقال في آية أخرى" قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا " [الإسراء: ٦٢]... إلى غير ذلك من الآيات، وفيها كما ترى عهد من إبليس – لعنه الله – على نفسه ليجتهدن في إغواء ذرية آدم عليه السلام، وليسلكن في سبيل تحقيق ذلك كل وسيلة ممكنة، وأنه لن ينجو منهم إلا قليل. وكان ذلك ظناً منه « لا يقيناً؛ لأنَّه لا يعلم الغيب، ولم يأته خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين إلا من استثنى »[١٣]. فأنزل الله قوله:"وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"[سبأ: ٢٠].

« قرئ (صَدَقَ) بالتخفيف، فيكون (ظنه) منصوباً على المصدر أو على الظرف، المعنى: صدَق عليهم ظناً ظنه إذ صدق في ظنه، أو: صدق عليهم في ظنه. قاله الزَّجَّاج[١٤]، وقال أبو علي[١٥]: «(ظنه) نصب؛ لأنَّه مفعول به، أي: صدق الظن الذي ظنه. ويجوز تعدية الصدق إلى المفعول به ».

وقرئ (صدَّق) بالتشديد، فيكون (ظنه) مفعولاً بوقوع الفعل عليه، قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصدق ظنه، وقال زيد بن أسلم: إنَّ إبليس قال: يا رب، أرأيت هؤلاء الذين كرمتهم وشرفتهم وفضَّلتهم عليَّ، لا تجد أكثرهم شاكرين، ظناً منه فصدق عليهم إبليس ظنه. وقال الكلبي[١٦]: إنَّه ظنّ أنه إن أغواهم أجابوه، وإن أضلهم أطاعوه، فصدق ظنه »[١٧].

المسألة السادسة: أكثر الخلق منجذب إلى الخبائث

من تأمل آية (سورة سبأ) آنفة الذكر، بضميمة الآيات السابقة يظهر له بجلاء أن أكثر الخلق ضالون متبعون للشيطان، واقعون في حبائله، منجذبون للخبائث بأنواعها. وأن القلَّة هم المؤمنون الناجون من غوائلها. وهذا ليس في أمة دون أمة، بل الأمم كلها كذلك، على اختلاف بينها في كثرة القلة المؤمنة، وقلة الكثرة الكافرة.

فهذا نوح -عليه الصلاة والسلام- يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، دعوة الدؤوب الصابر: " قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا "الآيات [نوح: ٥ . ٩]. وبعد كل هذا الجهد والوقت، تكون الحصيلة من قومه: " وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ " [هود: ٤٠].

ويأتي بعد نوح، هود وصالح – عليهما الصلاة والسلام – ولا يذكر القرآن الكريم قلَّة المؤمنين بهما صراحة، لكنه أفهم ذلك في سياق الآيات التي تحدثت عن أخبار كل منهما مع قومه، كقوله تعالى في خبر هود مع قومه عاد " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً " [فصلت: ١٥]. فافتخروا بقوتهم، ومن القوة: الكثرة العددية إلى جانب القوة الجسدية، وكقول قومه مخاطبينه – عليه الصلاة والسلام – بعدما دعاهم وأنذرهم: " قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ " [الشعراء: ١٣٦– ١٣٨]، وما في معناها مما يدل على أنهم يخاطبون هوداً – عليه السلام – بمنطق القوة والاستعلاء، ولا يكون ذلك إلا حيث تكون القوّة والكثرة والسلطان.

وأمَّا صالح – عليه السلام – فيكفي دليلاً على قلَّة من اتبعه من قومه أن نعلم أنَّهم طائفة من المستضعفين لا كلهم. قال تعالى: " قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

فالملأ من قومه كافرون، ويتبعهم خلق من المستضعفين على مثل ما هم عليه من الكفر.

وكذلك إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – فَمَنْ بعده من الأنبياء، فإنَّهم في قلَّة أتباعهم من المؤمنين وكثرة مخالفيهم من طوائف الكافرين مثل بقية إخوانهم من النبيين. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال تعالى بعد ما ذكر دعوة إبراهيم قومه، وتكذيبهم إياه، وما كان منهم من محاولة إحراقه بالنار، ثم إنجاء الله إياه منها، قال: " فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ "[العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

وجاء ذِكْرُ من آمن به في قوله تعالى: " قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ " [الممتحنة: ٤]... والذين معه كانوا قِلَّة، بل كانوا أفراداً[١٨]، وتظهر قلّتهم من الأسلوب الذي اتبعوه في إنكار المنكر على قومهم، فإنَّهم أنكروا عليهم باللسان والقلب « وهو أقصى ما يستطيعه أمثالهم من درجات تغيير المنكر .. إذ ليسوا بمستطيعين تغيير ما عليه قومهم باليد؛ لقلّتهم وضعفهم بين قومهم »[١٩]. ولم يذكر القرآن له أتباعاً غير لوط -عليه الصلاة والسلام-، ومن ذكر من ذريته.

ولوط – عليه الصلاة والسلام – يكفر به أهل قريته إلا أهله، حتى امرأته كانت على مثل ما كان عليه قومه. قال تعالى: " فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"[الذاريات: ٣٥، ٣٦]. وقال:"وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ " [العنكبوت: ٣١، ٣٢].

والذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا قلّة كذلك.

قال تعالى عن أتباع موسى – عليه الصلاة والسلام – : " فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ "[يونس: ٨٣].وقال فرعون حاكياً قلّتهم: " إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ " [الشعراء: ٥٤].

هذا، مع أن موسى – عليه الصلاة والسلام – كان أكثر الأنبياء تابعاً بعد نبينا مُحَمَّد – ﷺ – كما ثبت ذلك في حديث أنس عند مسلم(٢٠).

وقال تعالى عن أتباع عيسى – عليه الصلاة والسلام – : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ " [الصف: ١٤].

وهؤلاء الحواريون قلّة بالنسبة إلى من خالفهم من اليهود واليونانيين الذين كفروا، ومن النصارى الذين غلوا في عيسى عليه الصلاة والسلام، فانتهى بهم ذلك إلى الكفر أيضاً، وإنَّما تأيدوا ببعثة النبي مُحَمَّد ﷺ(٢١) ؛ لأنَّ المؤمنين بعيسى حقيقة يؤمنون بالنبي مُحَمَّد ﷺ كذلك. وأمّا أمة مُحَمَّد ﷺ فهم خير أمة أُخرجت للناس، والنبي مُحَمَّد – صلى الله عليه وسلم – أكثر الأنبياء تابعاً، كما في حديث أنس – ﷺ – قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت »(٢٢)، وحديث ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « عُرِضَتْ عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد؛ إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرتُ إذا سواد عظيم، ثم قيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرتُ فإذا سواد عظيم » الحديث(٢٣).

بل هم شطر أهل الجنة، وفي حديث آخر: « نصف أهل الجنة »(٢٤). ومع هذه الكثرة بالنسبة للأمم السابقة، فإنَّ نسبة المؤمنين إلى مَنْ سُواهم من الكفرة والمنافقين قليلة جداً، كما يدلّ لذلك حديث الْفِرَق المشهور.

وإذن فأقوام الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام –كلهم كما أخبر عنهم القرآن: "كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ " [الروم: ٤٢]، وكما قال تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ " [الحديد: ٢٦]، وقال: " وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ " [الروم: ٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا يأتي التعبير عن المؤمنين بألفاظ تدلُّ على قلتهم تصريحاً أو إيماءً، أو بلازم ذلك غالباً، كالضعف والاستضعاف، والإخراج من الديار، والسخرية والإيذاء وما أشبه ذلك(٢٥).

ولا يُشكل على ذلك ما جاء في بعض الآيات مما يحتمل ظاهره أن يكون المؤمنون أكثر من غيرهم، أو مساوين لهم أو أنهم كثير، ونحو ذلك، كقوله تعالى: " يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا " [البقرة: ٢٦]، وكقوله: " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ " [الحج: ١٨]، وكقوله: " وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ " [الأعراف: ٨٦] .. ونحوها. فإنَّ لفظ (الكثير) لا يلزم منه المساواة بينه وبين غيره، إذا كان هذا الغير موصوفاً بالصفة نفسها، فضلاً عن أنه لا يلزم منه الزيادة عليه، وهذا بخلاف لفظ (الأكثر) فإنَّه يفهم الزيادة؛ إذ هو أفعل تفضيل في الغالب، وغاية ما يفيده لفظ (الكثير) أنْ يكون موصوفُه خارجاً عن حد القلة، وإن لم يكن مساوياً لغيره.

ثم إنَّ هذا الاحتمال في مثل تلك الآيات يمتنع حمله على مساواة المؤمنين لغيرهم أو زيادتهم عليهم، بدلالة النصوص الكثيرة الدَّالة على أن غير المؤمنين أكثرية، وبدلالة النصوص الأُخَر الدَّالَّة على أن المؤمنين قلَّة، والمسألة ظاهرة بحمد الله.

ثم إنَّ الجن في ذلك كالإنس، قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ" [الأعراف: ١٧٩]، وقال: " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ " [الأنعام: ١٢٨] أي: « من إغوائهم وإضلالهم »[٢٦].

والمقصود: أن المكلفين من الثقلين أكثرهم ضالون مرتكبون لأنواع من الخبائث، الكفر بالله فما دون ذلك، وهذا في سائر الأمم، كما سبق.

أما سائر المخلوقات والموجودات فلا يوجد تلازم بين الخبيث والكثرة، ولا بين الطيب والقِلَّة، بل العكس هو الصواب بحمد الله.

ولهذا، فإنَّ دائرة المباح أوسع الدوائر، والمحرّمات محصورة معدودة، والمباحات مطلقة[٢٧] كما قال تعالى: " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ " [الأعراف: ٣٢][٢٨]، وقال سبحانه:" قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ " [يونس: ٥٩].

المسألة السابعة: الإنسان هو من يجعل الطيبات خبائث

ظاهر من هذه الآيات وما في معناها « أن بني آدم، وأكثرهم على ما علمت من الكفر والفسوق، هم الذين يتناولون الأشياء بطرق محرَّمة، فيدَعون كثيراً من الطيبات من العقائد والمطاعم والمشارب والمناكح والعوائد والمعاملات، وغيرها من سائر الأقوال والأفعال إلى المحرّم منها، فيفشو الخبيث ويكثر بسببهم ويقل الطيب، وإن كان كثيراً لولا تصرفهم فيه أو عدولهم عنه إلى غيره .. فإن الأمر على التفصيل يختلف من حين لآخر ومن شيء إلى غيره، وليس قوله: " وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ " [المائدة: ١٠٠] يقتضي أن كل خبيث يكون كثيراً، ولا أن يكون أكثر من الطيب من جنسه...»[٢٩]. ذلك أن الطيبات والمباحات هي الأكثر والأوسع فيما خلق الله ، وهي الأيسر فيما شرع .. لكن تخرج الذبائح من الحل إلى الحرمة بترك التسمية أو ذبحها لغير الله ، ويخرج المال من

الحل إلى الحرمة بالغصب أو الغش أو ببيع المحرم والاتجار به أو الكسب بالربا. ويكون الشيطان شريكا لأهل الدار في مبيتهم وطعامهم حين لا يذكرون الله ويدخلون باسم الله ، بل نحن نجعل للشيطان سلطانا على الولد إذا تركنا التسمية والاستعاذة من الشيطان عند إرادة الجماع .. وهذا باب يطول الحديث فيه. والغرض التنبيه على أن الإنسان قد يغشى ويتعاطى الخبيث بذاته ، وقد يجعل الطيب في أصله خبيثا .. وبهذا وذاك تكثر الخبائث فيُظن أنها هي الأكثر بأصل الخلق ، وهي ليست كذلك.

المسألة الثامنة: أسباب كثرة الخبائث والانجذاب إليها

إذا تقرر هذا، وهو: أن الخبيث أكثر من الطيب فيما يتعلَّق بالمكلفين من الثقلين، وما يصدر عنهم وبسببهم، فليعلم أنَّ كثرة الخبيث – على ما علمت من قبحه – إنَّما كان كذلك لأمور، منها:

– ما يحتف به من البهرج، والزخارف التي تجعله معجِباً لأكثر الخلق.

– ومن جهة ثانية فإنَّ كثرة الخبيث تكون بسبب الجهل والهوى الذي يجعل النفوس قابلة له، وإذا قبلته تخلقت به فصارت من حزبه، محسوبة على جنده وأنصاره.

أمَّا (الطيب) فمجرد من كل طلاء وبهرج ومن كل تزيين، إلا من زينته الحقيقية وإلا من ثقله في ميزان الله وثباته، وإلا من جماله الذاتي وسلطانه[٣٠] ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، وما به سبحانه أن يظلمهم، لقد بيَّن لهم ما يتقون من الخبائث، وهو سبحانه طيب، لا يقبل إلا طيباً من كل شيء. ولما كان أكثر الخلق قد استحوذ عليهم الشيطان ببهرجه وتزيينه، ففسدت فطرهم وخبثت نفوسهم وانتكست موازينهم.. لما كانوا كذلك، نصبَ الشيطان لهم موازين من عنده، وأحلَّ لهم ما حرَّم الله عليهم من الكفر والشرك والفسوق وسائر الخبائث فأطاعوه. قال تعالى: " أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا"[فاطر: ٨]. وقال: " فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ " [التوبة: ٣٧]. وقال: " كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[الأنعام: ١٢٢]، وقال: كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ " [الأنعام: ١٠٨] .. إلى غير ذلك من الآيات.

وتزيين الخبيث وكونه معجباً تنجذب إليه النفوس الخسيسة الرديئة يكون بأمور، منها:

– كثرة الخبيث، والكثرة تستهوي النفوس، وربما أوحت بأحقيته وأن القلة هي الشذوذ. والكثرة أيا كانت تأخذ العين وتهول الحسّ، وهي ذات لألاء يسطع فلا تتمكن أعين الكثيرين من رؤية الخبيث على حقيقته وسط زحام الكثرة وما تتمتع به من جاذبية آسرة.

ولهذا كان المشركون يفخرون على المؤمنين في صدر الإسلام بكثرتهم[٣١] ويعتزون بها: " وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ " [سبأ: ٣٥]، ولما كان للكثرة هذا التأثير في النفوس أمر الله نبيه محمَّداً ﷺ أن يقول لكل مكلف بَلَغَته دعوته: " لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ " [المائدة: ١٠٠][٣٢]. فالآية تؤذن بأن قد وجدت كثرة من أشياء فاسدة خِيف أن تستهوي من كانوا بقلة من الأشياء الصالحة[٣٣].

* ومن أسباب الانجذاب إلى الخبيث: قوته – أي الخبيث – في الظاهر، وتمكنه وتسلطه في الغالب، وكون عِلية القوم والملأ في الأمم وهم المتنفذون أصحاب الجاه والمال والسلطان، كون هؤلاء في طليعة جنوده، ومقدمة

صفوفه.. كل ذلك يدعو الدهماء والسذج عادة إلى الالتفاف حوله، ويعمل على تغطية وجه الخبيث القبيح بألوان من الدعاية، وإضفاء الشرعية على ما لم يمكن تغطيته منه؛ بالقوة تارة، وبالمال تارة، وبالاستغفال تارات. ولهذا نجد الملأ في كل أمة، هم أول من يقف في مواجهة الرسول المرسل إليهم، ويحول بينه وبين الجماهير. ويوزع التهم، يشيعها قبل أن تشيع الكلمة الطيبة. وبفعل القوة والجاه، وحصار الكلمة الطيبة تلتف الجماهير المغفلة حول الخبيث مُلوِّحة في وجه الطيّب الأعزل، وفرعون مثل شاخص على ذلك: " وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ" " الآيات إلى قوله: " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ" [الزخرف: ٥١ ـ ٥٤].

وتلك سُنَّة الله في الأمم عامة « أن يكون الملأ في طليعة من يتصدَّى لأنبياء الله؛ لأنَّ نفوسهم قد امتلأت بحب المال والجاه، وقلوبهم قد أُشرِبَت كره كل من يدعو إلى الله »[٣٤].

* ومن الأمور التي تجعل الخبيث معجباً: مَيْلُ النفوس إليه والحصول بسببه على الامتيازات، والتمتع بالشهوات دونما ضابط أو رقيب.. كالتسلط والظلم واغتصاب الحقوق والأموال، وكأكل الربا والرشوة والخيانة .. ومقارفة الجرائم والفواحش، وترك الأوامر واطّراح التكاليف .. وما أشبه ذلك مما يستهوي النفوس الهابطة ويلبي الرغبات الجانحة.

وكثيراً ما كشف القرآن الكريم عن علَّة إعراض الأمم عن فعل ما أُمِرُوا به، أو تقحّم ما نُهُوا عنه، وأنها راجعة لسبب أو أكثر مما ذُكِر. ومن أمثلة ذلك: ما قصَّه القرآن عن مدين قوم شعيب –عليه الصلاة والسلام–، وكيف أجابوا شعيباً لما أمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم أن ينقصوا المكيال والميزان. " قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " [هود: ٨٧].

يقولون له ذلك على سبيل التهكم ـ قبحهم الله[٣٥]. ومعنى كلامهم: أنَّه لا موجب لنهيك لنا إلا أنك تصلي وتتعبد له، فإن كنت كذلك أفيوجب ذلك لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما قلت لنا من إيفاء الكيل والميزان وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا؛ لأنَّها أموالنا فليس لك فيها تصرف، ولهذا قالوا في تهكمهم: " إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ " ؛ أي: إنك لأنت الذي الحلم والوقار لك خُلُق، والرشد لك سجيَّة، فلا يصدر عنك إلا رشد ولا تأمر إلا برشد ولا تنهى إلا عن غيّ، أي ليس الأمر كذلك[٣٦].

* ومن الأمثلة على فساد الأذواق ومسخ الفِطَر والأُنس بالخبائث: ما كان من قوم لوط –عليه الصلاة والسلام– لما نهاهم لوط عن فعلتهم الشنعاء، التي لا شك في شناعتها، لمخالفتها الطبائع.. لما نهاهم وأنكر عليهم بقوله: "وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"[النمل: ٥٤ ـ ٥٦].

فانظر كيف أصبح الطهر الطيب سُبّة، وتحول الشذوذ الأخلاقي خلقا اجتماعيا يحميه القانون!.

* ومن ذلك: ما يفعله المشركون، الذين يجعلون ما ليس بحجة أصلاً، يجعلونه برهاناً على صحة ما هم عليه، وأنهم يصدرون فيه عن أمر الله . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . قال تعالى حاكياً قِيلهم: " وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا

وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا " [الأعراف: ٢٨]، فكذبهم الله تعالى ووبخهم بقوله: " قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: ٢٨]، وبقوله سبحانه: " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " [البقرة: ١٧٠].

والأمور التي تجعل الخبيث معجباً لأكثر الخلق، عند التفصيل كثيرةٌ. لكنها في الجملة راجعة إلى ما ذكر من تزيينه، وكثرته، وقوته في الظاهر، وكون السلطان والجاه والمال في أشياعه غالبا، ولأن الناس في ظله يتبعون أهواءهم وأطماعهم، فلا تكاليف ولا أوامر ولا حدود.

وتلك لعمر الحق خلائق المخذولين وحياة الغافلين، لا يعدون قدرهم، وقد « حجبت، وفي رواية: حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات »[٣٧].

المسألة التاسعة: الخبائث لا تملك جاذبية بذاتها

وهذه الأمور عند التأمّل، ليس من بينها أمر يرجع إلى ذات الخبيث، وهي تؤكد أنه ليس في الخبيث قوة جذب ذاتية، بل ما يجعله معجباً: إما فساد النفوس وخبثها، بحيث لا يوافقها إلا الخبيث، وإما ما يحتف به من بهرج وتزيين. أمَّا الخبيث ذاته، فلا سلطان له على النفوس والعقول، وقد حكى الله ذلك عن إبليس – لعنه الله – صراحة في قوله تعالى: " وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ "[إبراهيم: ٢٢]؛ أي: ليس لي من حجة تصدق قولي، وتحملكم على متابعتي[٣٨]. إنما هو الباطل بزخرفه من جهتي ، والضعف والفسوق من جهتكم.

وأخبر في آية أخرى: أنَّ الخبيث أشبه شيء بالزبد "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً" [الرعد: ١٧]؛ أي: هباء ذاهباً. وتشبيهه بالزبد يدلُّ على أنَّه لا حقيقة له نافعة، ولا بقاء له على الأيام. فكيف يستوي هو والحق الطيب، الذي ينفع الناس، ويمكث في الأرض؟

المسألة العاشرة: الخبائث لا تثبت أمام الطيبات

إذا تقرَّرَ هذا، فإنَّ مما ينبغي أن يُعْلَمَ: أنَّ الدلائل والشواهد متضافرة على أن (الخبيث) مع كثرته لا يثبت أمام الطيب[٣٩] مع قلته، ولا يقوم له، برغم كثرة الخبيث، لكثرة أتباعه ومريديه، وما يصحب الكثرة من إعجاب، لكن لأنه خبيث رديء خفيف الوزن ، فإنه شتان ما بين القوة التي تنبع من الذات، والجمال الذي لا ينفك عنها لأنه جزء منها، وبين القوة التي سندها من خارج الذات، والجمال المصطنع الذي عماده التزيين والتزويق .. وكما قيل: ليس التكحل في العينين كالكحل.

لا يثبت الخبيث أمام الطيب في المواجهة في ميادين القتال."كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ "[البقرة: ٢٤٩]. و" إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ "[الأنفال: ٦٥]. " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ "[الأنبياء: ١٨]. وقال سبحانه "قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ

الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ "[المائدة: ٢٣].وقال عن كفار قريش :" أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ "[القمر: ٤٤، ٤٥].

كما لا يثبت في ميادين المبادئ والأفكار. " قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ" [البقرة: ٢٥٨]. وقال في محاجة قومه"قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ " [الأنبياء:٦٢. ٦٣] " كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ " [الذاريات: ٥٢، ٥٣]. فلما أعيتهم الحجج لجئوا إلى القذف بالتُّهم، واستعملوا القوة والبطش.

المسألة الحادية عشرة: الخبائث لا بركة فيها

ومن الحقائق التي أبرزها القرآن في مواضع أنه كما أن الخبيث لا يقوم للطيب ولا يثبت في مواجهته ، فإنَّه لا يغني غناءه، ولا توجد فيه بركته في الأموال والأعمال والأوقات، وغيرها.

قال تعالى: " وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ " [الروم: ٣٩]. وقال: "يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ " [البقرة: ٢٧٦]. وقال: " وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا " [الكهف: ٢٨]؛ أي: مصالح دينه ودنياه. " فُرُطًا "؛ أي: ضائعة معطلة(٤٠). وقال: " لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ " [النساء: ١١٤].

أمَّا هنالك في الآخرة، فإنَّ الخبيث – أيا كان – يكون هباءً منثوراً، قال تعالى: " وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا " [الفرقان: ٢٣].

المسألة الثانية عشرة: الطيبات حلال والخبائث محرمة

ومن الحقائق المميزة بين الطيبات والخبائث في كتاب الله ،أن الله يحب الطيبات والطيبين، ومن محبته للطيبات أباحها ورضيها لعباده. ومن محبته للطيبين حفظهم وأكرمهم وكان في معيتهم. لأن النبي الخاتم المبعوث بالحنيفية السمحة –عليه الصلاة والسلام– جاء بالأمر بالمعروف وإباحة الطيبات ، وبالنهي عن المنكر وتحريم الخبائث. قال تعالى: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"[الأعراف: ١٥٧]. والآية تومئ إيماءة لطيفة إلى أن اليسر ورفع الأغلال متلازم مع المعروف والطيب ، وأن الآصار والعَنَت مقرون بالمنكر والخبيث؛ فمن أخذ ما أمر به، وترك ما نهى عنه فقد خرج من ربقة الحرج وتحرر من أغلال الخبائث التي كانت تقيده من قبل. فانظر كيف كان الشرع الطيّب يسرا وحرية ، وكيف كان الكفر الخبيث والذنوب قيدا ومشقة ؟.

وفي الآية إشارة صريحة إلى حقيقة أخرى من الحقائق التي جلاها القرآن وهو يضع بين يدي المؤمنين مفاتح التمييز بين الطيب والخبيث؛ وهي حِلّ الطيبات وحرمة الخبائث.

وقد جاءت الآيات مبينة ذلك في جوانب الحياة المختلفة؛ في العقائد والمطاعم والمناكح والمكاسب ، وغيرها؛ كما في الآية السابقة، وكما في قوله سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ " [البقرة: ١٧٢]، وقوله: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا"[المائدة:٨٧، ٨٨]. وامتدح الطيبات وأنكر من حرّمها على نفسه أو غيره بقوله: " قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[الأعراف:٣٢]، وقوله: " الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ " [المائدة: ٥]. وكما في قوله تعالى: " الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ " [النور:٢٦]. وهو تفصيل عجيب بديع، في الأسلوب وفي المعنى المستفاد منه.

وفي سياق الفرز بين الطيبات والخبائث يأتي حديث القرآن عن تحريم المكاسب الخبيثة وبيان آثارها السيئة، وذمّ التسوية بينها وبين أساليب الكسب المباحة، في تفصيل رائع يضع الناس أمام حقيقة أخرى ومفتاح من مفاتح التمييز بين ما يحبه الله ويرضاه من الطيبات، وما يمقته وينهى عنه من الخبائث. قال تعالى: " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " [البقرة:٢٧٥،٢٧٦].

وفي آية أخرى يُجمِل الله أنواعا من الخبائث؛ في المطاعم والمكاسب والعقائد، ويقرن ذلك بالكشف عن آثارها المدمرة ، اجتماعيا وعقائديا، وأن ذلك بتزيين وإشراف مباشر من الشيطان، وإن كان تنفيذ ذلك بأيدي الناس. قال سبحانه: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ " [المائدة:٩٠،٩١].

المسألة الثالثة عشرة: الطيب والخبيث لا تُستثنى منه الذرية

والذرية والأهل قد يبدو أول وهلة أنهم شيء واحد، وأن رابطة القرابة تُبعد شبح الإساءة المؤذية، ولكن القرآن يضع أمام المسلم حقيقة أخرى وهو يرسم ملامح الطيبات ويحذر من أضدادها، ليقول بأن من الذرية والأهل فتنة ، وعدوا يحذر، وعملا غير صالح، وأن المخالف لك في الدين من أهلك قد يخونك ويشي بك. في المقابل فإن خيار الناس يسألون الله ذرية طيبة، وأن يصلح الله لهم أزواجهم وذراريهم. أي أننا أمام جيوب أسرية خبيثة ، وأخرى طيبة. قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ " [التغابن:١٤،١٥].وقال: " ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا"[التحريم:١٠]. وقال سبحانه:"قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ " [هود:٤٦].وقال عن زكريا عليه السلام: " وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ

وَلِيًّا* يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا " [التحريم:٦،٥]. وقال عن المؤمنين أنهم كانوا يقولون في دعائهم: " رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا " [الفرقان:٧٤]. ولهذا فإن من الطيبات التي يكون أثرها باقيا بعد موت الإنسان " صدقة جارية " ، وهي من الكسب الطيب. " أو ولد صالح يدعو له " ، وهذا من الذرية الطيبة. والآيات والآثار في هذا المعنى كثيرة، ومجموعها يؤكد أن القرآن في هذا الباب لا يضع بين أيدينا مجرد ملامح ، إنه يأخذنا إلى تفاصيل ومشاهد الخير والشر ، العقوق والبر، ومواقف الخبيث والطيب من الأزواج والأولاد.

المسألة الرابعة عشرة: حصاد الخبائث شؤم .. وعواقب الطيبات حمدٌ

ولقد ظهرت للناس وما تزال تظهر آثار الخبائث في كل مجالات الحياة من محق بركات الأموال والأوقات، وانتشار الأوبة والأمراض المستعصية وعقوق الأولاد وقطيعة الأرحام، وفساد الأذواق والأخلاق، وخراب الديار؛ وذلك كله بأسباب أكل الربا والمكاسب المحرمة، واستباحة الفواحش، وشرب الخمور، وفساد التربية، وغيرها. وأعظم من ذلك الكفر والشرك والنفاق، وهي أوعية جامعة لكل هذه الخبائث؛ لأن أصحاب هذه العقائد لا يحرمون ما حرم الله ورسوله. ومن وقع في شيء من الخبائث من أهل الإسلام فإنما أُتي من التشبه بهؤلاء.

وفي مقابل ذلك فإن من تأمَّل أحوال الأنبياء وأتباعهم الصادقين، وكانوا قلة في كل أحقاب التاريخ، لَمَّا كانوا قائمين بالحق، قد طابت عقائدهم وأقوالهم وأفعالهم، وزكت نفوسهم. كيف كان النصر والتمكين لهم، وللمبادئ التي جاءوا بها، وكيف أن أعداءهم كانوا هم المخذولين المغلوبين.. من تأمَّل ذلك كفاه وأغناه عن كل دليل سواه.

ولكن أين المتأملون؟ إنهم قلة قليلون .. إنهم أولو الألباب من بين الكثرة الكاثرة من الغافلين عن آيات الله في الأنفس والآفاق. ولهذا ذيّل الحق سبحانه وتعالى آية المائدة " لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ " بقوله: " فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " [المائدة: ١٠٠].

قال الشيخ مُحَّد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ عند تفسير هذه الآية: «أي فاتقوا الله يا أصحاب العقول الراجحة، ولا تغتروا بكثرة المال الخبيث ولا بكثرة أهل الباطل والفساد من الخبيثين، فإنَّ تقوى الله هي التي تنظمكم في سلك الطيبين فيرجى لكم أن تكونوا من المفلحين، أي: الفائزين بخير الدنيا والآخرة.

وإنَّما خصَّ أولي الألباب بالذكر في عجز الآية بعد مخاطبة كل مكلف في صدرها؛ لأنَّ أهل البصيرة والرؤية من العقلاء يعتبرون بعواقب الأمور التي تدلّ عليها أوائلها ومقدماتها بعد التأمّل في حقيقتها وصفاتها، فلا يصرون على الغرور بكثرة الخبيث بعد التنبيه والتذكير، وأمَّا الأغرار الغافلون، الذين لم يمرنوا عقولهم على الاستقلال في النظر والاعتبار بالتجارب والحكم، فلا يفيدهم وعظ واعظ ولا تذكير مذكر، بل لا يعتبرون بما يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم من حوادث الأغنياء الذين ذهبت أموالهم الكثيرة المجموعة من الحرام، والأمم والدول التي اضمحلت كثرتها العاطلة من فضيلتي العلم والنظام، وكيف ورث هؤلاء وأولئك من كانوا أقل مالاً ورجالاً، إذ كانوا أفضل أخلاقاً وأعمالاً " وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ " [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣][٤١].

وبما نقلته عن العلامة مُحَّد رشيد رضا أنهي هذا البحث.. وفيما يلي أذكّر بأهم ما تضمنه من فوائد وتنبيهات.

خاتمة البحث

وفيها ألخص لك أخي الحبيب أهم ما تفرق في ثنايا البحث ، مُجمِلا إياها في نقاط ، أهمها:

- أن في كتاب الله تصويرا كاملا وتفصيلا وافيا لأنواع الخبائث ، وأنها من جنس واحد.
- أنه ينتسب إلى معسكر الخبائث أعمال وأشخاص وكلمات ومنازل.
- أن الله يبغض الخبائث ويبغض أهلها، ويمحق بركاتها.
- وأن الخبائث هي جند إبليس وأدواته في الإغواء والإغراء .
- وأن أكثر الخلق متورطون فيها مغترون بها .
- وأنها خفيفة في الميزان ، زاهقة عند أي مواجهة وامتحان.
- أن الخبائث لا تملك قوة في ذاتها، ولا تتمتع بجمال فطري أصيل.
- وأنه لا يهنأ بها عيش لأصحابها في الدنيا، مهما كثرت وازّينت.
- أن استقرار الخبائث وفشوها في الناس هو أعظم سلطان لله على عباده ، بإيقاع أنواع المثُلات وصنوف العقوبات.
- وأن مآل هذه الخبائث ومآل أصحابها إلى أسوأ العواقب في الدارين.
- وأن الطيبات بعكس ذلك؛ فهي محبوبة لله، محبوب أهلها مرضيّ عنهم.
- وأن الله يبارك لأهلها أوقاتهم وأموالهم وأولادهم.
- أنه ينتسب إلى معسكر الطيبات أعمال وأشخاص وكلمات ومنازل.
- أن في الطيبات من القوة والجمال الذاتي ما يجعل أصحابها منحازين إليها أقوياء بها.
- أن أهل الطيبات قليل عددهم غرباء في أوساط أهل الخبائث.
- أن أهل الطيبات في راحة وسعادة في الدنيا، رغم القلة والغربة.
- وأن مآلهم إلى أحسن عاقبة. يقال لهم: " طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ "[الزمر: ٧٣].
- اللهم اجعلنا منهم بمنك وكرمك.. آمين .. والحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٢٧٢) ، مادة (خبث) ، للعلامة : أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ) ، المحقق: صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت .

(٢) المفردات في غريب القرآن (٥٢٧) ، مادة (طيب).

(٣) تفسير المنار (١٠٣/٧). : تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، لـ مُحَّد رشيد بن علي رضا بن مُحَّد شمس الدين بن مُحَّد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م .

(٤) في ظلال القرآن (٩٨٣/٢). سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ، دار الشروق - بيروت- القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ .

(٥) تفسير المنار (١٠٤/٧).

(٦) أي أنكر على من ظنَّ أنَّ التفريق بين المتماثلات، أو التسوية بين المختلفات يمكن أن يقع في شرع الله وأمره، كما سيتضح لك.

(٧) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (١٩٩) ، للإمام مُحَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م . بتصرف .

(٨) شفاء العليل، ص ١٩٩ بتصرف واختصار.

(٢) قيل إنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة من أهل مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف. وقيل غير ذلك. ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٢٥-٢٢٦) للعلامة: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، المحقق: سامي بن مُحَّد سلامة ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

(١٠) في ظلال القرآن (٩٨٤/٢) بتصرف.

(١١) تفسير المنار (١٠٣/٧).

(١٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، مُحَّد قطب، ص ١٧٨.

(١٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦٧٧)، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م ، ومعناه مرويٌّ عن الحسن: قال : ما ضربهم بسوط ولا بعصا وإنما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته . ينظر الجامع لأحكام القرآن (٢٩٣/١٤)، للعلامة: أبي عبد الله مُحَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية — القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

(١٤) إبراهيم بن السّريّ ، إمام من أئمة العربية، بغدادي المولد والوفاة، له: «معاني القرآن وإعرابه»، وغيره. توفي سنة (٣١١هـ). انظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ١١١. الأعلام (٤٠/١).

(١٥) هو: أبو علي الفارسي. أحد الأئمة المشهورين في علم العربية، وله في كل بلد دخله مصنف باسمه، ككتاب: «المسائل الحلبيات»، و«المسائل البغداديات»..توفي سنة (٣٧٧هـ). انظر: بُغية الوعاة (٤٩٦/١)، والأعلام (١٧٩/٢).

(١٦) هو: مُحَمَّد بن السائب. نسَّابَة، رَاوِيَة، عالم بالتفسير والأخبار وأيام العرب، ضعيف في الحديث، قال عنه النسائي: «حدَّث عنه ثقات من الناس ورضوه في التفسير، وأمَّا في الحديث ففيه مناكير». توفي سنة (١٤٦هـ). ا نظر: سير أعلام النبلاء (٢٤٨/٩) والأعلام (١٣٣/٦).

(١٧) تفسير القرطبي (٢٩٣/١٤).

(١٨) قال ابن عاشور في التحرير والتنوير : (والمراد بالذين معه الذين آمنوا به واتبعوا هديه وهم زوجه سارة وابن أخيه لوط ولم يكن لإبراهيم أبناء، فضمير إذ قالوا عائد إلى إبراهيم والذين معه فهم ثلاثة) (١٤٢/٢٨) الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

(١٩) التحرير والتنوير (١٤٤/٢٨، ١٤٥).

(٢٠) ولفظه: «أنا أول شفيع في الجنة، لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد». انظر: صحيح مسلم (١٨٨/١) المسمى: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٢١) تفسير ابن كثير (٣٦٢/٤).

(٢٢) سبق تخريجه قريباً.

(٢٣) متفق عليه. انظر: صحيح البخاري (١٢٦/٧) المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه ، لـ مُحَمَّد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق : مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ . وانظر صحيح مسلم (١٩٩/١).

(٢٤) ورد لفظ « شطر أهل الجنة» في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظ «نصف أهل الجنة» في حديث ابن مسعود ﷺ. والحديثان متفق عليهما. انظر: فتح الباري (٣٧٨/١١) ح رقم (٦٥٢٨). وصحيح مسلم بشرح النووي (٩٥/٣، ٩٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لـ أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الطبعة الثانية ، ١٣٩٢. والشطر: هو النصف، كما يدلّ على ذلك لفظ الحديث.

(٢٥) وقد سبق ذكر بعض الآيات الدالة على هذا المعنى، ويأتي لها نظائر عما قريب.

(٢٦) تفسير ابن كثير (١٧٦/٢).

(٢٧) انظر: المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ/عبد الرحمن السعدي، قسم الفقه، المجلد الأول، ص ٣٧، ١٤١ وما بعدها.

(٢٨) انظر: تفسير القاسمي (٤٦/٥) ، المسمى محاسن التأويل ، لـ مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) تحقيق : مُحَمَّد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ .

(٢٩) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦٣/٧) بتصرف.

(٣٠) في ظلال القرآن (٩٨٤/٢).

(٣١) تفسير المنار (١٢٣/٧).

(٣٢) انظر: تفسير المنار (١٢٣/٧).

(٣٣) التحرير والتنوير (٦٢/٧).

(٣٤) منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، مُحَمَّد بن سرور زين العابدين، ص ٥٩ بتصرف يسير.

(٣٥) انظر: تفسير ابن كثير (٣٤٣/٤).

(٣٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٨٧).

(٣٧) حديث صحيح، رواه الشيخان عن أنس بن مالك. ورواه مسلم عن أبي هريرة أيضاً . ﷺ. وهو عند البخاري بلفظ: «حُجِبَت»، وعند مسلم بلفظ: «حُفَّت». انظر: الفتح (٣٢٠/١١)، باب: حُجِبَتْ النار بالشهوات، ح (٦٤٨٧). ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، في فاتحته، ح (٢٨٢٢).

(٣٨) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن (٥٦٠/١٦) ، لإمام المفسرين : مُحَمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ، المحقق: أحمد مُحَمَّد شاكر ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٣٩) الطيب هنا: ما كان ضد الخبيث ونقيضه من كل وجه.

(٤٠) تفسير السعدي (١٦/٥).

(٤١) تفسير المنار (١٠٤/٧).

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين: الخامسة عشر ٢٠٠٢ م

٣. التحرير والتنوير « تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد » للعلامة: مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر بن عاشور التونسي(المتوفى: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر– تونس سنة النشر:١٩٨٤م.

٤. الجامع لأحكام القرآن ، للعلامة: أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ) ، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة ، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م .

٥. مفردات الراغب في غريب القرآن ، للعلامة أبي القاسم الحسين بن مُحَمَّد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) ، المحقق: صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت .

٦. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، للعلامة: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية لبنان / صيدا .

٧. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) ، للشيخ مُحَمَّد رشيد بن علي رضا بن مُحَمَّد شمس الدين بن مُحَمَّد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م .

٨. تفسير القرآن العظيم ، للعلامة: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) ، المحقق: سامي بن مُحَمَّد سلامة ، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة ، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م

١٠. سير أعلام النبلاء، للعلامة: شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد الذهبي:تحقيق : شعيب الأرنؤوط: مؤسسة الرسالة .

١١. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، للعلامة: مُحَمَّد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

١٢. صحيح البخاري ، المسمى الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه ، لـلإمام مُحَمَّد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق : مُحَمَّد زهير بن ناصر الناصر ، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

١٣. صحيح مسلم ، المسمى: المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ، للإمام: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) ، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٤. صحيح مسلم بشرح النووي ، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، للعلامة: أبي زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة الطبعة الثانية.

١٥. فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محب الدين الخطيب. دار المعرفة، بيروت.

١٦. في ظلال القرآن ، للمفكر الإسلامي: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ، دار الشروق - بيروت- القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ .

١٧. المسمى محاسن التأويل ، للعلامة مُحَمَّد جمال الدين بن مُحَمَّد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ) تحقيق: مُحَمَّد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .